مَنْهَجُ القرآن الكريم
في دعوته وهديه للناس
وبيان الدليل علىٰ ذلك

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)
من الصفحة ٦٥ حتى الصفحة ٨٦

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

منهج القرآن الكريم
في دعوته وَهَدْيِهِ للناس

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ الآية.

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لعباده المنهج الذي جاء به القرآن الكريم، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة أمور كبرى، هي البُغية والغاية، وإليها النهاية باعتراف جميع أولي العقل والفطانة، وإقرار ذَوي الحكمة والدراية. وتلك الأمور:

أولها: أَنَّ القرآن الكريم جاء هدىً للناس.

ثانيها: أَنَّ القرآن الكريم جاء ببيِّناتٍ من الهدى.

ثالثها: أَنَّ القرآن الكريم جاء بالفُرقان.

وإليك بيان هذه الأمور مُفصلةً إن شاء الله تعالى:

الأمر الأول

هو أن القرآن الكريم جاء هدىً للناس، ففي هذا تنبيهات إلَهيَّةٌ لتلك القضايا الهامّة، التي يجب على العقلاء أن يتنبهوا إليها ويعقلوها، ليكونوا على إيمان جازم بها، وعلى بَيِّنَةٍ من أمرِهم:

أ ـ ينبه الله تعالى العقلاء لشدَّة حاجتهم إلى هذا القرآن الكريم ، الذي جاء بهداهم ، وأنَّ الناس بلا هدىً يتيهون في الضلال ، وإنّ شأن الضالّ في طريقه أنْ يَتَخبَّط ويَحَار ، ويَظلّ حائراً دون أن ينتهي إلى طمأنينة وقرار.

فجاء هذا القرآن هادياً لأنه جاء بالنُور من عند الله تعالى ، وإذا جاء النور اهتدى الناس لمعرفة الأمور ، بعد ما كانوا في ظُلمة الحَيْرة والضلال ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فلم يُخرجهم من الضلال المبين إلاّ هذا النور القرآني المبين ، فإنَّ مَنْ سلك طريقاً مظلماً تعرّض للمهالك والمتاهات والمهاوي ، وأما الماشي على نور فإنه يهتدي إلى حقائق الأمور وينتهي إلى غايته ، ويظفر ببغيته في أمانٍ واطمئنانٍ.

وإذا كان هذا حال الماشي في طُرُق الأرض المحدودة مساحاتها ، والمحصورة مسافاتها ، فما ظنُّك أيُّها العاقل اللبيب في مسيرة الطريق الطويل ، المزدحم بالمهمّات ، المتسلسل بالعَقَبات ، ألا وهو طريق الحياة الدنيا الذي تَسير عليه مدى عمرك كله ، حتى تجتازه وينتهي بك إلى الآخرة؟

اللهمَّ حَسِّن عاقبتَنا في الأمور كلِّها ، وأجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

نعم إنك أيُّها العاقل أحوج إلى النور المحمديِّ الذي يَهديك سُبُل السلام ، ويخرجك من الظلمات إلى النور ، وينتهي بك إلى

مصالح الأمور ، فأنت أحوج إلى ذلك من حاجتك إلى النور المادّي لتمسي على وجه الأرض مسافة محدودة.

وإلى هذا أرشد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمته لتعتبر وتتذكر ، وتشعر بشدة الحاجة إلى ما جاء به من الهدىٰ والعلم حيث قال: «تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء» الحديث له طرق متعددة.

وروىٰ مسلم ، عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالىٰ وجهه قال: قال لي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسَلَّم: «قل: اللهمَّ اهدني وسدِّدني ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسَّداد سداد السَّهم».

وفي رواية: «قل: اللهمَّ إني أسألك الهُدىٰ والسَّدَاد» ، الحديث.

فلقد جاءنا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بنور من عند الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وهذا النور هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ب ـ تنبيه الله تعالىٰ لعباده وتذكيرهم بما وعدهم به، وما عهد به إليهم يوم أهبط أبويهم إلىٰ عالم الأرض، وهم ـ أي: بنو آدم ـ في صلبه وقال لهم سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فلما أهبطهم إلىٰ عالم الأرض لم يتركهم سُدىً، بل تعهَّدهم بهدْيه وإرشاده وتعليمه سبحانه، وأنْ يُبين لهم طرق الخير والبرِّ، والسعادة والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

وكان هذا عهداً عهد به إليهم: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟، فلقد وفَّىٰ سبحانه بعهده، فله الحمد والمِنَّة، فأرسل الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب وفيها الهدي الإلٰهي، وأمر الرسل صلوات الله تعالىٰ عليهم أن يُبلِّغوا عباد الله، ويهدوهم سُبُل السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، أي: يُبين لهم طريق الخير من الشر، وطريق السعادة من طريق الشقاوة، كما جاء في (صحيح) مسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلاَّ دَلَّ أمته علىٰ ما يَعْلَمُهُ خيراً لهم، وحَذَّرهم مما يَعْلَمُهُ شراً لهم» الحديث.

وفي هذه الآية الكريمة ـ أي: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية ـ يُردُّ علىٰ مَنْ زعم أنه مضىٰ علىٰ

الإنسان القديم طَوْر الحيوان الوحشي ، وأنه مرَّ عليه دور البهائم والهَمَج ، ويستدلون علىٰ ذلك بما عثروا عليه من صورة إنسان شعره إلىٰ نصفه ، وأنه كان يمشي عارياً ، إلىٰ ما وراء ذلك من المزاعم الباطلة.

والحقُّ أنَّ البشرية منذ القِدَم تَعَهَّدها ربها تعالىٰ بالتشريعات السماويَّة ، والإرشادات الإلٰهية إلىٰ ما فيه صلاحهم ، ولذلك تجد أن الخطابات الإلٰهية توجَّهتْ إلىٰ بني آدم عقب هبوطهم إلىٰ الأرض.

فيقول سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كما في سورة الأعراف.

فهذه إرشادات وتوجيهات إلٰهية عامَّة لجميع بني آدم ، ولذا جاء الخطاب بها بصيغة بني آدم ، ليعمَّهم جميعَهم منذ أهبطهم إلىٰ الأرض ، إلىٰ آخرهم علىٰ وجه الأرض ، وجاءت هذه التوجيهات عقب إهباطهم ، حتى تَعلم أن الله تعالىٰ هو ربُّ العالمين ، لم يترك عباده سُدىً ، بل تعهَّدهم بهديه منذ أهبطهم ، فإنه لم يخلقهم عبثاً ولا لَعِباً ، ولا للعبث واللعب ، بل خلقهم بالحق وللحق.

فما عثروا عليه من إنسان وحشيٍّ حيواني بهيمي ، شعره إلىٰ نصفه ، وعورته بادية ، وأظفاره طويلة ، إن ثبت ما قالوه فذلك

الإنسان هو إنسان لم يكن متمسِّكاً بشرائع الله تعالىٰ السماوية ، ولم يتصف ويعمل بالتوجيهات والإرشادات الإلٰهيَّة ، التي جاءت بالفِطَرِ الدينية المجمع عليها لدىٰ جميع الشرائع ، منذ هبوط آدم عليه السلام ، كما جاء في الحديث المتفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ عليه وآله وسلَّم: «خمس من الفطرة: الختان ، والاستحداد ، وقَصّ الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط».

وهكذا جاءت رسل الله تعالىٰ من لدُن آدم أبي البشر بالهدىٰ من الله تعالىٰ ، لما فيه صلاح العباد والبلاد ، حتى ختم الله تعالىٰ النبوَّات والرسالات بسيدنا محمد صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلَّم ، فجاء بالرسالة العامَّة لجميع طبقات الإنس ، وجميع طبقات الجنِّ ، وإلىٰ جميع الأمم: العرب والعجم إلىٰ يوم الدين ، وقد جَمَعَتْ رسالتُه جميع ما فيه صلاح العالم ومصالحهم ، وسعادة البشرية في الدنيا والآخرة علىٰ مختلف أجيالهم وأطوارهم.

فهديه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أكملُ أنواع الهَدي وأسعده ، وأقومه وأرشده ، كما سيتضح لك قريباً إن شاء الله تعالىٰ بأدلَّته.

فقوله سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ فيه إعلان صدق وَعْد الله تعالىٰ ، ووفاء عهده الذي عهد به في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

ج - إنَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ إعلاماً بهدي القرآن العامِّ لجميع طبقات الناس، علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وعلىٰ

اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، وعلىٰ اختلاف أجيالهم وقرونهم.

فإنَّ في هذا القرآن المجيد أكمل الهَدْي، وخير الهدي، لأوَّل هذه الأمة وآخرها، وأبيضها وأسودها، وعربها وعَجَمها، يهديهم في كل زمانٍ وفي كل مكان، إلىٰ ما فيه صلاحهم وفلاحهم، وإلىٰ ما فيه سعادة الفرد والمجتمع، وإلىٰ سعادة البيئات والجَمَاعات، والأُسَرِ والعائلات، وهذا هو الهَدْي القرآني الذي أَنزله الله تعالىٰ علىٰ سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: الرسول العامِّ لجميع الأنام، فلا أهدىٰ منه ولا أجمل، ولا أحسن منه ولا أكمل، بل هو الأهدىٰ والأبهىٰ، والأجمل والأكمل.

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ولذا كان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول في خطبته مُعلناً ومُبَيِّناً: «أَلَا وإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وخيرَ الهدي هديُ محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وشرَّ الأمور محدثاتها...» إلىٰ تمام الحديث.

فكلُّ هدي جاء بما ينفع الناس ويُسعدهم، فَإنَّ هدي سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أعظم نفعاً وأدفع ضيراً، وأجمع خيراً وأكبر بِرَّاً.

أَمَّا هدي الرسل قبله صلوات الله تعالىٰ عليه وعليهم فهو موجَّه إلىٰ أقوامٍ خاصَّةٍ، في أزمنة خاصَّة:

قال تعالىٰ في شأن التوراة: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ في شأن القرآن الكريم: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾.

فشتَّان بين هدي القرآن وهدي التوراة، وهدي بقية الكتب الإلٰهية.

وذلك لأن رسالات الرسل قبل بعثة النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كانت خاصة بأقوامهم:

قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وهكذا جميع الرسل.

أمَّا سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فقال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية.

وقال: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ الآية.

ومِنْ ثَمَّ كان يقول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الدينُ ما بلغه الليل والنهار».

وقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وكان كُلُّ رسولٍ يُبعَث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعثتُ إلىٰ الأحمر والأسود» الحديث.

فحُقَّ لِمَنْ كانتْ رسالته عامةً أن يكون هديُه أعظم ، وبرهانه أقوم ، لأنه جاء يوجِّـه العالم كلَّه ، ويواجه العالم كلَّه ، فلا بدَّ أن يكون هديه خيراً وأبقىٰ ، وحجته أجلىٰ وأقوىٰ .

د ـ قولـه تعـالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ لاَ يَتَعـارض مـع قولـه سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فَإِنَّ قوله سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ معناه : صالح لهداية جميع الناس إلىٰ الخير والسعادة ، وفي هَدْيِهِ الكفاية ، وإليه منتهىٰ الغاية .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ففيه بيان المهتدين بهديه ، المنتفعين ببيانه ، ويوضح لك هذا :

قولك : الماء فيه ريٌّ للناس ، أي : صالحٌ لأن يَرْوِيَهُم .

وتقول : الماء ريٌّ للشاربين ، أي : الذين استقوه وشربوه فعلاً .

وقولك : الطعام فيه غذاء للناس ، أي : هو صالح لأنه يُغذِّي جميعَ الناس .

وتقول : غذاءٌ للآكلين ، أي : الذين تناولوه فعلاً ، وطعموا منه ، فإنهم تغذَّوا به بالفعل والواقع .

فالمتقون هم الذين اهتدوا بهدي القرآن الكريم ، وانتفعوا به حقاً ، لأنهم عملوا بما أرشدهم إليه ودلَّهم عليه ، فصاروا بذلك متقين فائزين بمنافعه ، حيث قبلوه واتبعوه .

وهذا دليل علىٰ رجحان عُقولهم ، فإنَّ المتقي هو الذي يَتَوقَّىٰ المكاره والمحاذير والمخاوف ، وينظر في عواقب الأمور ، ويتعقَّل فيها خوف الوقوع في المهالك ، هذا هو الأصل في معنىٰ المتَّقي لغةً.

وهكذا المتقي إيماناً وشرعاً فإنه هو العاقل ، نَظَر في الأوامر الإلٰهية وعقلها ، فعلم أنَّ فيها الخير ورضا الله تعالىٰ وحبه وقربه ، وصلاح الدنيا والآخرة ، فالتزم تلك الأوامر ، ونظر في المناهي الشرعية فعلم ضررها وفسادها ، ونتائجها السيئة فتباعد عنها ، مُتوقِّياً ما يترتب عليها من غضب الله تعالىٰ وعذابه وعقابه وعتابه ، وفساد الدنيا والآخرة.

ولذا كان من شأن هؤلاء العقلاء المتقين ، أنهم يؤمنون بالغيب ولو لم يَروه عياناً ، لأنه قد ثبت عندهم صدق المُخْبِر الذي جاء به ثبوتاً قاطعاً ، فهم يؤمنون به ويعملون بمقتضاه.

أَوَلَيس مِن العقل والحكمة أن يُقبَل خبرُ الصادق الذي ثَبَتَ صدقه عندك إذا أخبرك عن عَدُوٍّ يريد أن يُغيرَ عليك ؟ أو أخبرَك عن مكروهٍ ينالك من حاسدٍ ؟ أو أخبرك عن ماكرٍ بك ، وتأخذ حذرك وتتوقَّىٰ شَرَّ ذلك بأسباب الوقايات ، ولا يكون موقفك في ذلك موقف الجاهل الغافل الذي يقول: هذا ليس بصحيح ، أوْ ليس بواقع ، وأنا لا أصدِّق حتىٰ أرىٰ بعيني ؟! فإذا فعلت ذلك صَبَّحك العدوُّ أو مَسَّاك ، وحينئذٍ تندم ولاتَ ساعة مندم.

ومن هـذا ما جـاء في (الصحيحيـن) عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: لما نزلتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي صلَّىٰ

الله عليه وآله وسلَّم علىٰ الصفا فجعل ينادي: «يا بَني فِهْرٍ ، يا بني عَديٍّ» ـ لبطون قريش ـ حتىٰ اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَ خَيْلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ»؟

قالوا: نعم. ما جَرَّبْنا عليك إلاَّ صِدقاً.

قال: «فإنِّي نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد».

وفي رواية لهما أيضاً: قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «أَرَأيتكم إن حدثتُكم أن العَدُوَّ مُصبحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقونني»؟.

قالوا: نعم.

قال: «فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد».

وفي رواية للبخاري قال لهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتُم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقيَّ»؟.

قالوا: ما جَرَّبْنَا عليك كذباً.

فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هو نَظِيْر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ مع أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاء نذيراً للعالَمين قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

هـ ـ وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فيه يُطلق الله تعالىٰ الهُدىٰ ، ولم يُبيِّن إلىٰ ما يهدي إليه هذا القرآن الكريم ، وهذا من باب حذف المعمول للعموم ، ليذهب فهم الفهيم ، ولبُّ اللَّبيب ، إلىٰ أن هذا القرآن الكريم يهدي إلىٰ جميع مجالات الخير والبرِّ ،

والإحسان والفضل ، وما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هدي القرآن هو كذلك وفوق ذلك ، بدليل أن الله تعالىٰ ذَكَرَ في آيةٍ أخرىٰ من سورة الإسراء ما يهدِي إليه هذا القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

هـدي الـقـرآن الكريم للتي هـي أقـوم

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

فلقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي العالم لأقوم السبل النيِّرة ، وأرشد الطرق الخيِّرة ، كما يشير إلىٰ ذلك قوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم في الدعاء الذي علمه لسيدنا علي رضي الله عنه ، حيث قال له : «قل : رَبِّ اغفر وارحم ، واهدني السبيل الأقوم» .

فهذا الحديث الشريف شاهِدُ صدق ، يوضح لنا المراد بالتي هي أقوم من الآية الكريمة ، فإن السنَّة بيان لكتاب الله العزيز ، والمعنىٰ : أنَّ هذا القرآن يهدي لأقوم سبل الخير والسعادة ، والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، كما سيتضح ذلك .

ففي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ حصر وتَخْصِيص لهذا القرآن الكريم بهدايته للتي هي أقوم ، وأَنَّ أيَّ كتاب سواه لا يبلغ هذه المنزلة في هداه للتي هي أقوم ، فهو الكتاب المتفوق بهديه علىٰ جميع الكتب المتضمنة للهدي .

وفي هذا أنواع من التحديات للعقلاء المبتغين للهدىٰ ،

وللحكماء وللعلماء المستبصرين بأنوار الهدى ، فإنه يتحداهم أن يأتوا بما هو أهدىٰ منه لمصالح العباد ، وبما هو أدلُّ وأشمل لكل خير وسعادة ورشاد ، كلا بل هو أهدىٰ ولا أهدىٰ منه ، ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ولا أقوم منه ، ولا أقسط ولا أصلح ولا أحكم منه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟! ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ؟! ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ ، ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ .

ومعنىٰ أَنَّ القُرآنَ يَهْدي للتي هي أقوم : هو أنَّه يهدي لأقوم السبل والطرق بالأدلة الساطعة ، في جميع ميادين السعادة والصلاح ، والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

فهو يهدي لأقوم طريق في العقيدة والإيمان .

ويهدي لأقوم طريق في الشريعة والأحكام .

ويهدي لأقوم طريق في الآداب ومكارم الأخلاق .

ويهدي لأقوم سبيل في حُسْن المعاملات والمبادلات المالية .

ويهدي لأقوم سبيل في تَنْظيم الأحوال الشخصية ، وحسن المعاشرات الزوجية ، وحفظ حقوق المرأة ، وإصلاح النسل والذرية ، ويهدي لأقوم طريق في ضبط نظام الأسرة ، ورعاية حقوق الآباء والأمهات والأبناء ، ويهدي لأقوم سبيل في حقوق القرابة الرحمية ، ويهدي لأقوم سبيل يهتدي فيه العاقل لمعرفة ما له وما عليه ، ولمعرفة بدايته ونهايته ، ولمعرفته مِمَّ خلق ، ولِمَ خلق ، وإلىٰ مَا يستقرّ أَمْرُ المخلوقات .

ويهدي لأقوم طُرق التفكير الصحيح في هذه العوالم ، وفي

عظيم قدرة الله تعالىٰ رب العالمين ، وفي سَعة علمه ، وسائر كمالاته وصفاته ، حسب ما يمكن للعبد أن يصل إلىٰ معرفته ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وفَصْلُ الخطاب في هذا الباب هو : أن القرآن يهدي لأقوم طرق الخير والبر ، وإصلاح النفوس والبيئات ، والأفراد والجماعات والمجتمعات ، وإصلاح عمارة الأرض التي استعمر الله تعالىٰ بني آدم فيها ، وإصلاح أمور الدنيا والآخرة . فما من خير وفلاح يعود علىٰ بني الإنسان إلا ومِنَ القرآن هدايته لسبيله الموصل إليه ، وما مِنْ شر يعود علىٰ بني الإنسان إلا وفي القرآن الكريم تحذيرٌ منه وإبعاد عنه .

فهو قُرآن عَجَبٌ ، إليه ينتهي الطلب والأدب ، ما فرَّط الله تعالىٰ فيه من شيء ، يهدي العباد إلىٰ سُبُل الرشاد ، وقال تعالىٰ مخبراً عن الجن لما سمعوه : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

الأمر الثاني

هو أن القرآن الكريم جاء ببينات من الهدىٰ ، فهو يهدي لطريق الحق ، ويأتي بالبينات علىٰ أن هذا هو الحق ، وهذا مُطَّرِد في جميع ما هدىٰ إليه القرآن الكريم من العقائد الإيمانية ، والأحكام الشرعية ، والكمالات الخُلُقية ، والآداب العامة والخاصة .

الأمر الثالث

هو أن القرآن الكريم جاء بالفرقان ، أي : جاء بما يُفَرق بين

الحق الذي هدىٰ إليه ، وبين الباطل الذي خالفه ، فهو يهدي للتي هي أَقْوَم ، ويأتي بالبينات القاطعة علىٰ حَقِّيَّة ذلك ، ويُبَين الفرق بين حقِّيَّة الحق الذي جاء به ، وبطلان الباطل الذي خالفه ، وما يترتب علىٰ ذلك من آثار ونتائج .

ولا شك أن هذا المنهج القرآني في هديه المشتمل علىٰ تلك الأمور الثلاثة : هو أقوىٰ وأقوم ، وأسدُّ وأحكم ، وأقطع في إقامة الحجة ، وأَبْيَن في وضوح المحجَّة مِنْ كل منهج سواه ، ومن كل أسلوب مما عداه .

وسأذكر إن شاء الله تعالىٰ بَعضَ الأمثلة من الآيات الكريمة ، ليتضح فيها هذا المنهج القرآني المجيد ، وتَتَجلَّىٰ فيها تلك المهام الثلاثة التي سبق ذكرها آنفاً .

وبتلك الآيات التي أذكرها تتراءىٰ واضحة معالم الطُّرق في حجج القرآن الكريم .

من تلك الأمثلة يعبر القارئُ إلىٰ بقية حجج القرآن ، في جميع المواضيع والمبادئِ التي هدىٰ إليها القرآن الكريم ؛ لأن استقصاء جميع ما ورد في القرآن الكريم من البينات ، واستيفاء جميع حججه وبراهينه ، لهو أمر مُعجز لا يستطيعه العقلاء ، ولا العلماء ، ولا الحكماء ، فإنَّ بحر القرآن طَامٌّ ، وهديه عامٌّ ، وهو الذي لا تشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أَنْ قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ .

شواهد علىٰ ذلك المنهج القرآني ومنها المُنطَلَق

هَدْي القرآن الكريم إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ:

لقد جاء القرآن الكريم يهدي إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ، وبالبيِّنات والفرقان، وقد دلت الآيات القرآنية علىٰ أن هناك أركاناً خمسة، وأصولاً خمسة، لا بدَّ منها في الإيمان بالله تعالىٰ.

الأول: الإيمان بأنَّ الله تعالىٰ هو حقٌّ، أيْ: واجبُ الوجود.

الثاني: الإيمان بأنه سبحانه هو واحد، أي: لا شريك له.

الثالث: الإيمان بأنه سبحانه مُتَّصِف بالكمالات، وله سبحانه الأسماء الحسنىٰ على وصف لا انتهاء له.

الرابع: الإيمان بأنه سبحانه ليس كمثله شيء، أي: لا مشابهة بينه وبين المخلوقات.

الخامس: الإيمان بأنَّ جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالىٰ بإرادته وقُدرته، واختياره ومشيئته.

وقد جاءت الآيات القرآنية في تفصيل الكلام علىٰ تلك الأصول والأركان الخمسة، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، أذكر هنا طائفةً منها:

الأصل الأول: أن الله تعالىٰ هو حقٌّ واجب الوجود:

اعلم أنَّ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو حقٌّ ـ أي: واجب الوجود ـ هو أوَّل واجب إيماني، فقد قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ

دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ .

والمعنىٰ: أن ربّ السماء والأرض وخالقها هو حقٌّ واجب الوجود ، بدليل هذا الموجود المشهود وهو السماء والأرض ، فهو حقٌّ لا شكَّ فيه ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ولا تشكُّون في ذلك .

وقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أنتَ الحقّ ، ووعدك حقٌّ ، والجنَّة حقٌّ . . . » الحديث كما في (الصحيحين) .

فالله تعالىٰ هو حقٌّ ـ أي: واجب الوجود الذاتِّي ـ وأما الجنة والنار وما وراء ذلك فهي حقٌّ بجعل الله تعالىٰ وخَلْقِهِ .

ومعنىٰ الحق في اللغة هو: ما وَجَبَ إثْباته والاعتراف به ، ولا يمكن إنكاره والشك فيه لقوة ثبوته وقطعية حُجيته ، ويقابله الباطل ، فهناك حق الوجود ، ويقابله الباطل وهو العدم ، وهناك الحق الشرعي وهو: ما أحلَّه الله تعالىٰ شرعاً وأثبته ، ويقابله الباطل وهو الحرام ، وهناك الحق الخبري وهو: الصدق المطابق للواقع ، ويقابله الباطل وهو الكذب المخالف للواقع .

فالله تعالىٰ هدىٰ العباد في تلك الآيات من القرآن الكريم ، إلىٰ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو حَقٌّ أي: واجب الوجود ، بحيث يَجِبُ علىٰ العاقل الاعتراف به قطعاً ، والإيمان بوجوده من غير ارتياب ، إذ ليس هناك ثابت تظاهرت الأدلة والبراهين القاطعة علىٰ إثبات وجوده؛ كما تظاهرت علىٰ إثبات وجود البارئِ جلَّ وعلا .

ومِنْ ثَمَّ حقَّ له أن يتسمَّى بـ﴿ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الذي لا يخفىٰ إثبات وجوده علىٰ أيِّ عاقل ، بل هو الظاهر ولا أظهر وجوداً منه؛

بحيث لا يُشَكُّ فيه ، كما أنه لا شك في وجود الكائنات المشهودة بالعيان ، قال تعالىٰ : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؟!! .

فكما أنه لا شك في وجود السماوات والأرض المشهودة بالعيان ، فإنه من بَابٍ أولىٰ وأحق لا شك في وجود مَنْ أوجد السماوات والأرض ، وهو الله تعالىٰ ؛ كما سيتضح لك الدليل إن شاء الله تعالىٰ .

فهو سبحانه حقٌّ ـ أي : وجوده واجب ـ قديم لا أوَّل له ، باقٍ لا آخر له ، ويقابله الباطل وهو ما كان وجوده ليس بقديم ولا باق ، وهو الممكن الذي لا وجود له من ذاته بل بإيجاد الله تعالىٰ له ، ولذا جاء في الحديث المتفق عليه : «أصدق كلمة قالها شاعر كَلِمَةُ لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل» .

أيْ : كل ما سوىٰ الله تعالىٰ هو باطل بالنسبة إلىٰ وجود واجب الوجود القديم الباقي ، لأنَّ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ هو مخلوق بعد عدم ، وهو ممكن الوجود ـ أي : ليس وجوده واجباً ولا ذاتياً له ، بل صار موجوداً بإيجاد غيره ، وهو الله تعالىٰ واجب الوجود ـ .

فهذه الممكنات بعد ما أوجدها الله تعالىٰ ، وأعطاها الوجود الإمكانِّي المحدود ، هي حق بالنسبة للمعدومات التي لم توجد بعد ، وحَقِّيَّة وُجودها ليست من ذاتها ، بل بتحقيق الوجود لها بقدرة واجب الوجود الذاتي ، وهو الله تعالىٰ القديم الباقي .

﴿ هَٰذَا هُدًى﴾ أي : فالآيات القرآنية جاءت تهدي للإيمان بأن الله تعالىٰ هو الحقّ ، أي : واجب الوجود الذاتي قَطعاً .

البينات من الهدى

وأما البينات من الهدىٰ إلىٰ الإيمان بأن الله تعالىٰ هو الحقُّ ، فقد جاء ذلك في آيات كثيرة متعددة ، في مناسبات مختلفة :

فمن ذلك : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فَمُشَاهدة السماوات والأرض دليل قاطع على حقيَّة مُوْجدهما .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . . ﴾ الآيات .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

فالله تعالى حقٌّ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فيه تنبيه لأقرب شيء إلىٰ الإنسان والتبصر فيه وهو نفسه .

ومن البيِّنات قوله سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ .

والمعنىٰ : كيف ينكرون حَقيَّة وجود الله تعالى ، وكيف يصح إنكار وجود الخالق مع أنهم شيء موجود حِسّاً وعقلاً ، فكيف يُتصوَّر في العقل أَوْ يمكن في الواقع أن يكون وجودهم صادراً

لا عن شيء متصف بالوجود ، فإنَّ العدم هو لا شيء ، بل هو عدم ، ولا يمكن أنْ ينشأ عنه وجود ، إذاً لا بدَّ لهم من موجد مَوْجُوْد أوجدهم.

فإن ادَّعو أن المُوجد لهم هو أنفسهم ـ أي: أنهم هم الخالقون لأنفسهم ـ **فذلك باطل حِسّاً وباطل عَقْلاً** ، لأنَّه يلزم منه أنهم قَبْل إيجادهم لأنفسهم كانت أنفسهم موجودة ، لأنَّ خالق الشيء هو سابق الوجود علىٰ الشيء ، والصانع مقدم الوجود علىٰ المصنوع ، والمؤثر متقدم الوجود علىٰ الأثر ، وهذا كله مَعلوم بداهةً.

وإن ادَّعوا أن آباءهم أوجدوهم فيقال: إن آباءهم هم مثلهم ، فلا بدَّ وأنَّ الذي أوجدهم هُوَ ليس من أنفسهم ، ولا من آبائهم ، ولا من المخلوقات كلها ، لأنهم كلهم كانوا عدماً ، والعدم لا يُعطي الوجود لأنه عدم.

إذاً لا بدَّ وأنَّ هناك خالقاً خلقهم ، وأَنَّ هذا الخالق الذي خلقهم وأوجدهم هو ليس من جنس المخلوقات التي اكتسبتْ الوجود من غيرها بعد عدم ، بل ذلك الخالق هو واجب الوجود: القديم الذي لا أوَّل له ، والباقي الذي لا آخر ولا انتهاء له ، وهذا هو الله رب العالمين ، الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء ، والقدير علىٰ كل شيء ، والمحيط بكل شيء ، وليس كمثله شيء سبحانه وتعالىٰ.

ومما يوضِّح ذلك ويثبته قطعاً: أن هذه الممكنات الموجودة المعبَّر عنها بالعوالم ، هي بجميع أنواعها كانت مسبوقةً بالعدم؛ ثم وُجدتْ ، فلا بدَّ لهذا الممكن الذي وُجد بعد عدم لا بُدَّ له من

موجد يُرَجِّحُ وجوده علىٰ عدمه ، فيخرجه من العدم الذي كان فيه ، إلىٰ عالم الوجود الذي صار فيه ، ولا يمكن أن يُوجَد بِنَفْسِهِ بلا مُوجدٍ له ، لأنه يلزم من ذلك ترجُّح وجوده علىٰ عدمه الذي كان فيه بلا مرجِّح ، والترجُّح بلا مرجِّح هو مستحيل لدىٰ جميع الموازين العقلية ، كما أنه باطل مستحيل الوقوع لدىٰ جميع الموازين الحسيَّة .

إذاً لا يمكن ترجّح إحدىٰ الكفتين المحسوستين بلا مرجِّح ، فإذا كان ثمَّة كفتا ميزان محسوس تُوزن به الموادُّ وهما متساويتان تماماً ، فإنهما تكونان متعادلتين ، ولا يمكن أن تُرجح إحداهما علىٰ الأخرى إلا بمرجِّح من المثقلات ، أو من ضغطة هواء ونحو ذلك ، وهكذا أمر الوجود والعدم بالنسبة للممكنات ، فإنهما علىٰ حدٍّ سواءٍ ، لا يمكن أن يترجح وجود الممكن علىٰ عدمه إلا بمرجِّح ، فالذي رجح وجود الممكنات علىٰ عدمها بإرادته ، وخَلقها وأوجدها بقدرته : هذا هو الله تعالىٰ الخَلَّاق العليم ، الذي قال : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وكما أنَّ الترجُّح بلا مُرَجِّح هو باطل عقلاً وحسّاً ، فإن التحرك بلا مُحرِّك هو باطل ، وإن التطوُّر بلا مطوِّر هو باطل .

فالعالمُ قبل وجوده كان ساكناً في ظُلْمَةِ العدم ، فتحركُه من سكونه إلىٰ نور الوجود لا بدَّ له من مُحرِّك ، وانتقالُه وتطوره من العدم إلىٰ عالم الوجود لا بد له من ناقل ومطوِّر ، فهل رأيتَ ساكناً من حجر أو مَدَرٍ أو شجرٍ أو نحو ذلك تحرَّك بدون محرِّك مشهود ، أو مغيَّب كثيف أو لطيف؟! .

فحينَ يثور الغبار ، وتتحرَّك الأشجار ، وتتموَّج البحار؛ يعلم العاقل يقيناً أن هناك مُحرِّكاً وهو الهواء ، وإن كان هُو لا يرىٰ الهواء بعين بصره لِلَطَافة الهواء ، وضعف بصره عن إدراك لطافته ، ولكن ثَبَتَ وجود الهواء عنده بعقله بمشاهدة آثاره وهي: إثارة الغبار ، وتحريك الأشجار ، وتمويج البحار ، وتحسسه بآثار برودته وحرارته ، وهذا أمر بديهيٌّ لا يُختلَف فيه . . .

الأصل الثاني: هَدْي القرآن الكريم إلىٰ توحيد الله تعالىٰ:

وهو الإيمان بأنَّ الله تعالىٰ هو واحد ، بِمَعْنىٰ أنه لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وإلىٰ هذا الأصل الإيماني هَدَىٰ الله تعالىٰ عباده بقوله: ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.